في الكنيسة، يجد الناس ما لن يجدوه في أيّ مكانٍ آخر

حديثٌ رابع حول القدّاس الإلهي، الجزء الثاني

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

إذًا، الكنيسة مقدّسة، ولذا نسلك تجاهها بورعٍ ونرسم إشارة الصليب عندما نمرّ أمامها. في ليماسول، لم نكن نتبع هذا التقليد بأن نرسم إشارة الصليب على أنفسنا عندما نمرّ أمام كنيسة، لكنّي لاحظتُ أنّ هذا التقليد الجميل صار عادةً بتزايدٍ في الآونة الأخيرة، وبخاصّةٍ بين الشباب. أقفُ أحيانًا هنا عند الباب وأتفرّج على المارّة، وأرى الأطفال والمراهقين والشباب يرسمون إشارة الصليب على أنفسهم، بينما يستحي مَن هم أكبر سنًّا من مباركة أنفسهم بإشارة الصليب. ذات مرّة، رأيتُ شابًّا يقود سيّارته مارًّا أمام الكنيسة، وكان يتحدّث عبر الهاتف. حين رأى الكنيسة، أراد أن يرسم إشارة الصليب، لكنَّ يديه الاثنتين كانتا مشغولتين، إذ كان ممسكًا بالمقود بإحداهما ويحمل هاتفه بالأخرى. فماذا فعل؟ رسم إشارة الصليب بيَده وهو ما يزال يحمل هاتفه. أثنَيتُ على هذا الشابّ قائلًا في نفسي: "أحسنتَ صنعًا!".

تُذكّرُنا الكنيسة بوجود الله، لذا دعونا نحبُّ كنيسة الله ونعتني بها ونصلّي من أجلها. يجب أن تكون الكنيسة أقدسَ ما في حياتنا. لاحظوا كيف بنى أسلافُنا الكنائسَ (يمكن ملاحظة ذلك في الأرياف خصوصًا). كانوا يختارون أفضل الأماكن وأجملَها لبناء الكنائس. مع أنَّهم ربّما كانوا هم أنفسهم يسكنون في كوخٍ حقيرٍ ذي أرضيّةٍ ترابيّة، مثل حظيرةٍ أو زريبة، لكنَّك كنتَ تجد في قُراهم مبنيَين جميلَين: الكنيسة والمدرسة.

اذهبوا إلى "لوفا"[1]، وسترون مثلًا مذهلًا عمّا أتكلّم عليه. ما زالت موجودةً في هذه القرية تلك الأكواخ التي كان القرويّون يقطنون فيها، والتي لم يعد أحدٌ يبني مثلها منذ زمنٍ طويل. كان السكّان المحلّيّون يرعون القطعان وكانوا فقراء للغاية. كانوا يعيشون في أكواخٍ ذات أرضيّاتٍ ترابيّة، لكنّهم بنوا كنيسةً حجريّةً في غاية الجمال، حتّى إنّ قليلين يمكنهم اليوم بناء كنيسةٍ مماثلةٍ لها. ولا تقلُّ مدرستُهم روعةً عن الكنيسة. أُنظروا إلى تلك المدرسة وستشعرون بأنّكم تقفون أمام أحد أبنية جامعة آثينا. لماذا احتاج أسلافنا إلى كنائس

[1] قرية تقع في شمال غرب ليماسول على بعد 28 كم.

ومدارس جميلةٍ بهذا الشكل؟ كونهم أناسًا حكماء، عرفوا أنَّه بفضل الكنيسة والمدرسة سيحصل أولادهم على تنشئةٍ صحيحة. وإلّا لكانوا بنَوا شيئًا آخر: ملهى ليليًّا، مطعمًا، محلّ وجباتٍ سريعة، أو شيئًا مشابهًا.

عندما كان القدّيس قوزما الإيتوليّ[2] يعبُر في القرى ويعِظ، كان يسأل القرويّين:

- ألديكم أولاد؟
- نعم، أيّها الأب القدّيس.
- أحضِروهم إلى هنا. أيمكنهم القراءة والكتابة؟
- من أين لهم أن يتعلّموا ذلك؟
- إيه! مَن تجلبون إليَّ إذًا؟ ماذا سأفعل بهم؟ دعوا الأولاد يتعلّمون أحرف أبجديّتهم. دعوهم يتعلّمون. فليتعلّموا الصلاة، فليتعلّموا عن الله.

أراد القديس قوزما أن يفهم المسيحيّون أنّ على الولد أن يتلقّى تربيةً وتعليمًا، وأن يُقدَّم له الغذاء الروحيّ، وأن يتطوّر على نحوٍ كاملٍ كشخص.

تشهد حالة الكنائس، من حيث مظهرها الخارجيّ وتصميمها الداخليّ، على ثقافة كلّ شعب. وذلك لأنّ الكنيسة هي، بشكلٍ من الأشكال، مكانٌ لعامّة الناس، مثل المستشفى والمدرسة والمعهد والنادي الرياضي والمسرح.

أظنّ أنّ هذه الحقبة التي نمرّ بها تحتاج إلى كنائس أكثر ممّا مضى. لماذا؟ لأنّه يمكن توصيف هذا العصر بأنّه زمن الوهن العام. فالجميع متعَبون اليوم. ولا أتكلّم على التعب الجسديّ بل الروحيّ. إنّ نفوسنا متعَبةٌ بسبب الكثير من الأمور التي نشاهدها ونسمعها ونحتكّ بها كلّ يوم. والأهمّ أنّنا متعبون لأنّ الله غائبٌ عن نفوسنا.

[2] القدّيس قوزما الإيتولي مُعادل الرسل، هو واعظ ومبشّر وشهيد في الكهنة. يعيَّد له في 24 آب/6 أيلول. ولد في اليونان عام 1714. بشّر بالإنجيل في جميع أنحاء اليونان، وعلى أراضي ألبانيا الحديثة وبلغاريا وجمهوريّة مقدونيا وتركيا. سعى بخاصّةٍ إلى زيارة تلك الأماكن النائية التي فقدت التقوى المسيحيّة تقريبًا بسبب قرونٍ من استعباد المسيحيّين على يد الأتراك، إلى جانب المناطق التي كان سكّانها مهدَّدين بالأسلمة. تبعًا لإرشاداته، جرى افتتاح مدارس الكنائس في القُرى (أكثر من 200 مدرسة بالمجمل)، وجرى تأسيس الملاجئ والكنائس. إنّ خدمة القديس قوزما الرسولية، والتي دامت 25 سنة، انتهت باستشهاده على أيدي الأتراك في آب 1779.

هذه هي النعمة في كنيسة الله. يتقدّس هذا المكان بإقامة الكثير من القداديس الإلهيّة والأسرار الأخرى، وبوجود الأيقونات المقدّسة، وبصلوات جميع أولئك الذين يأتون إلى هنا. تذهبون إلى الكنيسة وتشعرون على الفور بشيءٍ مختلفٍ فيها، بأجواء مختلفة، بطاقةٍ مختلفة. علينا، نحن الكهنة، أن نحرص على أن تحافظ كنائسُنا على هذا الجوّ المتولّد من حضور الله ونعمته.

كم من الناس يأتون إلى الكنيسة كلّ يوم، ويكتفون بالجلوس هناك بضع دقائق، لكي يُصلّوا ويهدؤوا ويجدوا بعض السلام. إنّ الأماكن التي يمكن للناس أن يهدؤوا فيها ويريحوا نفوسهم ضروريّةٌ للغاية في يومنا هذا. وكنائس الله تشبه الموانئ الهادئة. فكما أنّ القوارب والسفن تتقاذفها الأمواج في عرض البحر وتحتاج إلى موانئ هادئة لتُلقي بمراسيها وتخزّن جميع الضروريّات وتُصلح أيّ ضررٍ حاصلٍ لها، كذلك يحتاج الإنسان المعاصر إلى الكنائس. الكنيسة ميناءٌ يرتاح فيه الناس. إنّها مشفى يجدون فيه الصحّة الروحيّة والجسديّة. هنا، في الكنيسة، يجدون ما لا يمكنهم إيجاده في أيّ مكانٍ آخر.

فكّروا في مدى شقاوتنا لو أنّنا عشنا من دون كنائس، أو عشنا في منزلٍ لا توجد فيه أيقوناتٌ للمخلّص أو والدة الإله. إنّ منزلًا كهذا سيكون مُقفرًا وموحشًا ومهجورًا. خذوا أيقونات المسيح ووالدة الإله وعلّقوها في كهفٍ مظلم، وسيتبدّل ذلك الكهف على الفور ويصبح مُكرَّمًا. وأفخمُ مكانٍ في العالم يتحوّل إلى بريّةٍ إذا لم يكن الله حاضرًا فيه، والناس الذين يعيشون هناك يصبحون همجيّين أيضًا. أحيانًا، ترون شخصًا يعيش في قصرٍ كهذا، ولديه خمسة عشر خادمًا يحضرون لسيّدهم كلّ ما يريده حتّى قبل أن يأمر بذلك... ترون كيف يصرخ ويشتم من دون أيّ هدوءٍ أو سلامٍ روحيّين. ما مشكلتك؟ لماذا تتعامل بعدوانيّةٍ مع خدمك؟ ما الذي ينقصك؟ إنّك تملك كلَّ ما يمكنك تخيّله... مع ذلك، ينقص هذا الإنسان شيءٌ ما: ينقصه حضور الله في قلبه ونفسه. فمن دون الله، يكون كلّ شيءٍ عديم القيمة. أمّا مع الله، فحتّى ولو كان الإنسان يعيش في كوخٍ بائسٍ أو في العراء، فإنّه يكون هادئًا وسلاميًّا وممتلئًا محبّةً تجاه الجميع، ويمجّد الله قائلًا: "المجد لك يا الله!".

لهذا، فإنّنا نصلّي من أجل الكنيسة التي تستقبلنا بحفاوةٍ وتمنحنا جمًّا من البركات، وتعطينا حضور الله بين جدرانها وفي الأسرار المقدّسة وجسد المسيح ودمه. لقد تعمّدنا في الكنيسة، ومنها سيُخرجوننا محمولين حين تنتهي حياتنا الأرضيّة. كثيرًا ما أفكّر في أثناء خدمتي للجنازات: إنّ كنيسة الله لمذهلة! من خلالها

نأتي إلى هذا العالم ومن خلالها نغادره. فأهمّ أحداث حياتنا مرتبطةٌ مباشرةً بالكنيسة. فيها يتزوّج الناس، وإليها يجلبون أطفالهم في اليوم الثامن واليوم الأربعين بعد ولادتهم، وفيها يعمّدونهم. يأتون إلى الكنيسة مقدّمين تضرّعاتهم، ويحتفلون بالأعياد فيها، ويُحمَلون منها بعد جنازاتهم. كم علينا أن نحبّ كنائسنا ونعاملها بإكرام! فلنشكر الله لأنّه منحنا هذه الفرصة المباركة لنكون في بيت الله. كما قال النبي داود: "اخترتُ الوقوفَ على العتبةِ في بيتِ إلهي على السكن في خيام الأشرار" (مز 83: 10). هنا يقول داود إنّه من الأفضل لنا أن نفترش الأرض في ركنٍ من أركان بيت الله من أن نسكن في قصور الخطأة. إنّ ركنًا في الكنيسة لأفضل من قصور أولئك البعيدين عن الله.

كيف يجب أن ندخل الكنيسة؟ هذا ما تتحدّث عنه الطلبة الرابعة من الطلبة السلاميّة الكبرى، والتي نقوم بدراستها اليوم: "... الذين يدخلون إليه بإيمانٍ وورعٍ وخوف الله. إلى الربّ نطلب". نصلّي من أجل أولئك الذين يأتون للصلاة "بإيمان"، الذين يؤمنون بالله ويطلبونه، الذين يؤمنون بأنّ الله حاضرٌ في الكنيسة، وسط جماعة المؤمنين. نصلّي من أجل الذين يدخلون "بوَرَع"، وهذا لا يقتصر على مظهرهم الخارجيّ، بل يشمل أيضًا حالتهم الداخليّة واستعداد قلبهم. عندما نعي بحقٍّ أنّنا موجودون في أقدس الأماكن، حيث يكون الله حاضرًا، ويُحتفَل بالأسرار المقدّسة، وحيث صلّى جمٌّ من المسيحيّين وسيواصلون الصلاة، عندها نشعر بأنَّه لا يمكننا التصرّف بطريقةٍ غير لائقةٍ أو عديمة الاحترام.

قد تسألون: هل السلوك الخارجيّ مهمٌّ حقًا؟ إنَّه مهمٌّ بلا شكّ. وإلّا لكنتُم صلَّيتُم [بأيّة وضعيّة] وأنتم مستلقون على السرير أو جالسون على كرسيّ، أو واقفون أو راكعون. ليس الإنسان نفسًا فقط، أو ذهنًا فقط، بل هو جسدٌ أيضًا. ويشترك الجسد في الصلاة وخدمة الله. مثلًا، عندما تصلّون وأنتم راكعون، فإنّ نفسَكُم تمتثل لوضعيّة الجسد المتواضعة. أمِنَ الصعب عليكم أن تركعوا؟ قِفوا باستقامةٍ إذًا. ثمّة أمرٌ واحدٌ مؤكَّد، وهو أنّنا ننتفع حين يكون كياننا بأكمله في حالة انتباهٍ وورع. لذلك، علينا أن نكون شديدي الانتباه في الكنيسة، وليس فقط خلال القدّاس الإلهي. وحتّى في خارج الخدمة، علينا التصرُّف أيضًا بورعٍ وجدّيّةٍ في الكنيسة.

نصلّي من أجل الذين يأتون إلى الكنيسة "بخوف الله". ولا يعني خوف الله ذاك الخوف الاعتياديّ الذي يختبره الناس حين يمرّون بجوار مقبرةٍ أو يدخلون غرفةً مظلمة. إنَّه خوفٌ مقدَّسٌ يتولّد من إحساس الإنسان

بحضور الله. حين تشعر بأنّ الله قريب، تشعر بمحبّةٍ تجاهه، وبخوفٍ مقدّسٍ وورعٍ عميق. هذا ما يعنيه "خوف الله" في اللغة الليتورجيّة.

حتّى ولو دُمِّرَ مكانٌ مقدّسٌ، مثل كنيسة الله، تدميرًا كاملًا، فهو لا يفقد نعمته. سأضرب لكم مثلًا معروفًا. لقد قرأتم سيرة الشهداء الجدُد، رافائيل ونيقولاوس وإيريني[3]. لم يكن أيٌّ من السكّان المحليّين يعلم بوجود ديرٍ على الجزيرة في الأزمنة القديمة. بحسب التقليد المقدّس، كان المؤمنون يصعدون الهضبة في يوم الثلاثاء من أسبوع التجديدات في كلّ عام، ويُشعلون الشموع ويرتّلون تراتيل الفصح، على الرغم من عدم وجود كنيسةٍ أو مزارٍ هناك - لا شيء. من حينٍ إلى آخر، كان الناس يرون نورًا في أعلى الهضبة، أو يسمعون تراتيل من مرتّلين غير مرئيّين، ويشمّون رائحة بخور. فقط بعد أكثر من 400 عامٍ على استشهادهم، وبمشيئة الله وتدبيره، بدأ هؤلاء القدّيسون بالظهور للناس وإخبارهم أنَّه كان يوجد في السابق ديرٌ في أعلى الهضبة، وأنّ رفاتهم مدفونٌ هناك تحت الأرض.

يمكنني الاستشهاد بالكثير من القصص المشابهة. أخبرَنا شيخنا يوسف الفاتوبيذي أنّ أصدقاءه الذين كانت أصولهم تعود إلى آسيا الصغرى، ذهبوا مرّةً لزيارة قريتهم الأمّ، حيث كانت توجد في السابق كنيسةٌ للقدّيس يوحنّا السابق. أرادوا إيجاد تلك الكنيسة (كذلك يذهب الكثير من القبارصة أحيانًا إلى الجزء المحتلّ من الجزيرة لإيجاد كنيسة قريتهم الأمّ). وهكذا، وصلوا وبحثوا عن الكنيسة، لكنّهم لم يتمكّنوا من إيجاد أيّ شيءٍ لأنّ الكنيسة الصغيرة القديمة كانت قد دُمِّرَت منذ زمنٍ طويل. فتنهّد أحدُ الأشخاص وقال: "إيه أيّها السابق القدّيس. لقد غادرْنا نحن، وغادرتَ أنتَ أيضًا".

عندما سمع أحد الأتراك المحلّيّين ذلك أجابه:

[3] هم الشهداء القدّيسون الذين تألّموا على أيدي الأتراك في جزيرة ليسفوس. عام 1462، رسى الأسطول التركيّ في ليسفوس، وثار سكّان الجزيرة ضدّ الغُزاة، ولكنّ الأتراك تعاملوا مع الثوّار بوحشيّة. أُجبِرَ السكّان على الانسحاب إلى الجبال، والتجؤوا للاحتماء خلف جدران دير ميلاد والدة الإله على هضبة كاريس، والذي كان رئيسه حينذاك الأرشمندريت رافائيل. استباح الأتراك الدير ودمّروه، وعذّبوا الكثير من المسيحيّين والرهبان وقتلوهم. أصبح رفات الشهداء الجدد المتواري تحت الأرض طيَّ النسيان خلال قرون الحكم التركيّ الطويلة. وعام 1959، خلال عمليّات التنقيب التي جرت على هضبة كاريس، وُجد كفنٌ مع بقايا شخصٍ متوفٍّ مجهول. بدأ القدّيس الذي تمّ اكتشافه (وهو الشهيد في الرهبان رافائيل) بالظهور على نحوٍ متكرّر للعديد من المسيحيّين، في الحلم وفي اليقظة، وأخبرهم بالتفصيل عن ظروف تعذيبه هو والذين تألّموا معه.

- أنتم غادرتُم، وهو بقي.
- ماذا تعني؟
- لقد بقيَ هنا. كثيرًا ما نسمع أصوات قرع الأجراس والترتيل، ونشمُّ رائحة البخور. لذا فقد بقيَ قدّيسكم هنا ولم يغادر.

حقًا، إنّ نعمة المكان تبقى ولا تختفي. حتّى ولو انهار مبنى الكنيسة انهيارًا تامًّا، فإنّ النعمة تبقى. ولذلك، تُحرِّم قوانين الكنيسة استعمال كنيسةٍ مقدّسةٍ لأيّ غرضٍ آخر. إذا كُرِّسَت كنيسة، فالأمر قد تمّ – تبقى كنيسةً إلى الأبد، ويبقى المكان مقدّسًا.

ترون كيف يبيعون في الغرب الكنائس الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة. يأتي كهنةٌ ويتلون صلاةً خاصّةً لهذا الغرض، وكأنّ الكنيسة تتوقّف عن كونها كنيسةً بعد ذلك. يتلون اليوم صلاةً للتكريس فيصبح البناء كنيسةً، وغدًا يقرؤون صلاةً مختلفةً من المفترض أن تجعل الكنيسة تتوقّف عن كونها كنيسة. فقط تخيّلوا أن يقرؤوا عليكم صلاةً وتصبحون بفعلها غير مُعمَّدين...

من المستحيل أن تحصل أمورٌ كهذه في الكنيسة الأرثوذكسيّة. يُكرَّس المكان مرّةً واحدةً فحسب، ويصبح مقدّسًا إلى الأبد. لا يتعلّق الأمر بالمكان فقط، بل بموجوداته أيضًا. مثلًا، لا يمكن استخدام سجّادةٍ من الكنيسة لأغراضٍ أخرى. لا يمكن استخدام المقشّة المستخدَمة في كنس أرض الكنيسة لكنسِ أرضيّة المطبخ أو الحمّام. ولا يمكن استخدام الخرقة المخصَّصة لمسح أرض الكنيسة في تنظيف المنزل. للكنيسة أشياؤها الخاصّة، وكلّ ما في الكنيسة، وأيّ شيءٍ يتعلّق بها، مكرَّسٌ ومخصَّصٌ بطريقةٍ ما لخدمة الله. حتّى ولو دُمِّرَت الكنيسة كليًّا، لا يمكن بناء أيّ شيءٍ آخر في موضعها، بما أنّ هذا المكان مكرَّس.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2024). “Every Church is a House of God”, *OrthoChristian.com.* Link